الإعجاز القرآني

(القرآن) : (آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هي منها كواكب . بل الجند الالهي قد نشر له من الفضيلة علم وانضوت اليه من الأرواح مواكب أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها . وامتنعت عليه « أعراف » الضمائر فابتز « انفالها » . وكم صدوا عن سبيله صدا . ومن ذا يدافع السيل اذا هدر ؟ واعترضوه بالألسنة ردّا . ولعمري من يردّ على الله القدر ؟) ...

(الفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة . وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها . وتصف الآخرة فمنها جنّتها وضرامها ، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب . وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب) ...

(ومعان بينات هي عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقّة تستروح منها نسيم الجنان ، ونور تبصر به في مرآة الايمان وجه الأمان) ...

(يقولون مجنون بعض آلهتنا اعتراه ، وأساطير الأولين اكتتبها أم يقولون افتراه ، بلى إن العقل الكبير في كماله ليتمثل في العقول الصغيرة كأنه جنون . وإن النجم المنير فوق هلاله ليظهر في العيون القصيرة كأنه نقطة فوق نون) ...

(لا جرم أن القرآن سرّ السماء فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول . ومعنى الخلود في دولة الأرض الى أن تدول ، وكذلك تمادى العرب في طغيانهم يعمهون ، وظلت آياته تلقف

عند الرافعي

للدكتور / محمد أحمد العزب

ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) ... بهذه الكلمات ـ اللوحات ، قدّم الرافعي لكتابه الجليل (إعجاز القرآن) ومع كل ما في الكتاب من عطاء علمي موضوعيّ محيط ، فإن هذا الحسّ الشعري في تناول القضايا القرآنية لا يتخلف على الاطلاق ، وهذا بعينه هو ما يعطي هذا الكتاب مذاقه الخاص الذي ينفرد به بين كتب الاعجاز في القديم والحديث .

والمتأمل لكتاب الرافعي : (إعجاز القرآن) يلاحظ أنه يدير الحديث حول قضايا الاعجاز من وجهتين معا :

الاعجاز المجالي : الذي يتجسد في أثر القرآن الكريم في تهذيب الروح العربية ، وآداب القرآن الخاصة والعامة ، وأثره في صنع حضارة إنسانية من خلال العرب ، وتوجّهه وتوجيهه في مجالات الكون والانسان والعلم ...

والاعجاز الموضوعي : الذي يتجسد في أسلوبه ، وتأليفه ، وأوضاع التركيب فيه . وطرائق بلاغته ... وهذا هو المعنى البادء للاعجاز القرآني من حيث هو مواجهة إبداعية معجزة لكل ما عرف العرب من ألوان الابداع والبلاغات ... واذا شئنا أن نجمل خصائص الاعجاز المجالي ـ كما تحدث عنه الرافعي ـ لنفرغ لتأمل الاعجاز الموضوعي ، فربما لا نكون مجانبين للصواب إذا قلنا إن الرافعي تحدث عن هذا الاعجاز من حيث أثره في وحدة العرب السياسية ، وفي تهذيب الروح العربية ، وفي إقامة أمّة على أنقاض أمة ، وفي تأصيل لغة

واحدة جامعة ... وتحدث عنه كذلك من حيث آدابه الفاعلة في العادة والطبيعة . وفي الفرد والجماعة ، وفي الحرية والمسئولية ، وفي الشريعة والآداب ، وفي القوة الاجتماعية ، وفي وضع العرب في قلب تاريخ الحضارة ، وفي تربية العقل والخلق ، وفي وضع أصول الأخلاق الاجتماعية ، وترسيخ المساواة والارادة ... وتحدث عنه كذلك من حيث أثره في العلوم ، نعني في النهضة الاسلامية الشاملة ، وفي عموم الدعوة الى العلم ، وفي تشييد أساس التاريخ العلمي ، وفي نشأة عديد من العلوم من حوله : كالقراءات . والنحو ، والتفسير ، والتوحيد ، وأصول الفقه ، والفقه ، والتاريخ ، والقصص ، والوعظ ، والخطابة ، والفرائض ، والفلك ، والبلاغة ، الى غير أولئك من تحريض لا ينتهي على كشف سرائر الكون ، وتفجير طاقاته بلا حدود !!

وينتقل الرافعي من حديثه عن الاعجاز المجاليّ الى حديثه الأساسي عن الاعجاز الموضوعي ، أي عن الاعجاز الذي ينبعث من قيم ذاتية كامنة في القرآن الكريم ، كأسلوبه ، ونظمه ، وتأليفه ، وأوضاع تركيبه ، الى آخر ما هناك من قيم تعبيرية وتركيبية لا تعرف الا لهذا النسق القرآني الذي أخرس الألسنة المتطاولة ، وشل العقول المثرثرة ، وأجبل الطبائع التي كانت تزعم أن الكون مملكتها تجول في أنحائه باقتدارها الموهوب بلا حدود . وبدءاً يصنّف الرافعي الاعجاز ، فهو في رأيه شيئان : (**ضعف القدرة الانسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الانسان واتصال عنايته .. ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه**) .. أي إن الاعجاز القرآني في مواجهة العجز الانساني ليس أسير لحظة أو مرحلة أو تاريخ ، وإنما هو شيء محتوم دائما . لأنه جزء من النظام الكوني الذي يندفع من خلاله الأزل في اتجاه الأبد على نسق متواتر لا يقبل الاهتزاز .

ثم يرسم الرافعي خطوط منهجه في هذه الدراسة الرائعة فيقول : (ونحن الآن قائلون فيما هو الاعجاز عند علمائنا رحمهم الله ، وما وضعوه فيه من الكتب ، ثم ما هي حقيقته عندنا ، ثم نبسط الكلام فضلاً من البسط في إعجاز القرآن بأسلوبه وبيانه مما يماس اللغة ويستطرق إليها ، نستتم بذلك القول فيما انتهى إليه جهدنا من قليل ما استطفّ لنا من أسراره العجيبة ، وإن قليلها لكثير على الانسان بالغة ما بلغت قوّته) ... وهو تخطيط منهجي ملتزم بأصولية التفكير العلمي ، لأنه يبدأ باضاءة المساحة التي تحرك فوقها السابقون ، ثم يتوفر بعد ذلك على بذل طاقاته الممكنة في هذا الاتجاه ، حاصراً نفسه في جانب من جوانب البحث وهو ما يتصل ببيان القرآن ولغته وأسلوبه ، مقرراً أنه لن يقول الكلمة الأخيرة ، ولا الكلمة الجامعة المانعة ، وإنما قصاراه أنه سيقول الكلمة الممكنة . وإنها ـ في هذا المجال ـ لكثيرة على الجهد الانساني مهما بلغ من تضاؤلها ... هنا يتحدد

مسار البحث والباحث . ويشرق الاحساس باستمرارية الجهود المبذولة على هذا الصعيد دون تنكر من الخالف للسالف ، وتتضح قيمة التواضع العلمي الذي يقف طاقاته أمام ما تستطيع من إمكان وليس أمام ما لا تستطيعه من غير الممكن .

وحين يتعرض الرافعي للأقوال في الاعجاز لا يهمل تصنيفها وإسقاط أبعاضها والابقاء على أبعاض منها كثيرة ، فهو يبدأ برفض أكثر آراء المتكلمين وأشباههم من المناطقة والفلاسفة ، لأن معظم هذه الآراء لا تتحدد قيمتها النهائية بقوتها هي وإنما بضعف الاراء النقيضة ، وإن كانت هي في ذاتها خطأ وفسادا وجهلاً ... وهو يرفض كذلك القول بخلق القرآن .

الذي يعزي الى لبيد بن الاعصم اليهودي . ثم الى ابن اخته طالوت ، ثم إلى البنانية التي ترى الهية علىّ . ثم إلى الجعد بن درهم الذي صرح بالانكار على القرآن والرد عليه وجحد أشياء مما فيه ، وأضاف الى القول لخلقه ان فصاحته غير معجزة ... ثم يرفض الرافعي اتجاه المعتزلة الذين حاولوا لونا من المزج بين الفلسفة كنظر صرف . وبين الدين كيقين محض ... وخاضوا الى غايتهم تلك بحارا من التهويمات والتأويلات والتخليطات غير المعقلة وهم الذين زعموا ان العقل رايتهم التي يقاتلون تحتها جيوش التخليط والتلفيق ... وكان اول طلائع المعتزلة النظام الذي قال بالصرفة من جهة ، وبأن الاعجاز انما كان من حيث الاخبار بالماضي والآتي من جهة اخرى ... ويسفه الرافعي الاتجاه الى القول بالصرفة لان من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه ، وهو بعد قادر عليه ، يكون عجزه ليس عن عدم القدرة ولكن اعجزه القدر وهو لا يغالب .... ثم ينتقل الرافعي الى ايراد رأي الجاحظ في الاعجاز ، وهو رأي كرأي اهل العربية ، الا ما ند عنه تخليطا أو تأثرا غير مقصود بأستاذه النظام من كلام يوحى بالقول بالصرفة ... ويشير الرافعي الى رأي بعض الفرق التي ترى الاعجاز في النظم المتفرد مقاطع وفواصل ، اي فكأنه بدع من ترتيب الكلام لا اكثر ... والى رأي من يقول : ان الاعجاز في سلامة الالفاظ القرآنية مما يشين اللفظ كالتعقيد والاستكراه ونحوهما مما عرفه علماء البيان ... ثم يعقب قائلا : (وهو رأى سخيف يدل على ان القائلين به لم يلابسوا صناعة المعاني) ... ويقول : (وآخرون يقولون : بل ذلك في خلوه من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة) ...(وجماعة يذهبون الى ان الاعجاز مجتمع من بعض الوجوه التي ذكرناها قلة وكثرة) .... وإذا كانت هذه الآراء التي رصدها الرافعي على هذا النحو ضعيفة في الدلالة على صميم الاعجاز حتى من بعض وجوهها

على الاقل ، فان هناك آراء بقيت على جلالها واستطراد بعضها من بعض.... يقول الرافعي : (أما الرأي المشهور في الاعجاز البياني الذي ذهب اليه عبد القاهر الجرجاني صاحب (دلائل الاعجاز) المتوفى سنة ٤٧١ (وقيل ٤٧٤) فكثير من المتوسمين بالأدب يظنون أنه أول من صنف فيه ، ووضع من اجله كتابه المعروف وذلك وهم ، فان اول من جود الكلام في هذا المذهب ، وصنف فيه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفي سنة ٣٠٦ ، ثم ابو عيسى الرماني المتوفي سنة ٣٨٢ ، ثم عبد القاهر ، وهذا الرأي كان هو السبب في وضع علم البيان) ... (ومذهب اخر لطائفة من المتأخرين : وهو ان وجه الاعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سورة وفي مبادىء الآيات وفواصلها قالوا : والمعول على ثلاث خواص : ١ ـ الفصاحة في الفاظه كأنها السلسال ,

٢ ـ البلاغة في المعاني بالاضافة الى مضرب كل مثل . ومساق كل قصة وخبر ، في الأوامر والنواهي ، وأنواع الوعيد ومحاسن المواعظ والأمثال ، وغيرها مما اشتمل عليه . فإنها مسوقة على ابلغ سياق .

٣ ـ صورة النظم ، فإن كل ما ذكره من هذه العلوم مسوق على أتم نظام وأحسنه وأكمله) ... ومحصل هذا المذهب ـ يقول الرافعي ان الاعجاز في القرآن كله ، لأن القرآن كله معجز ... وهو معجز لأنه معجز .... وواضح ان الرافعي هنا ينزع في تقريره للقضية المرادة منزعا عاطفيا ربماكان يحتاج الى كثير من التأمل الفكري النابع من نظر موضوعي إلى شتى المقولات والآراء ... . ثم يتصدى الرافعي لمقولات جماعة من المتكلمين وأهل التقسيمات المنطقية على اختلاف بينهم في مجمل شبههم ومطاعنهم التي يوردونها على القرآن الكريم ، وهي نحو عشرين وجها ـ يقول الرافعي ـ كلها سخيف ركيك ، وكلها واه مضطرب .... وكلها غث بارد ... هل جنح الرافعي عن العقل الى العاطفة ... لانه كان يرفض مقولات عقلية فاحشة ربما كان يكون أروع لو انه التزم موضوعية الحوار العلمي الهادىء الرصين مهما كانت فحاشة ما يتصدى له من مقولات !!

اما عن التأليف في الاعجاز فيسلسله الرافعي هكذا : الجاحظ ت ٢٥٥ ـ والواسطي ٣٠٦ ـ والرماني ٣٨٢ ـ والباقلاني ٤٠٣ ـ والخطابي ٣٨٨ ـ والرازي ٦٠٦ ـ وابن ابي الاصبع ٦٥٤ ـ والزملكاني ٧٢٧ . وتحت عنوان (حقيقة الاعجاز) ينتقل الرافعي الى تحديد وجه الاعجاز في القرآن الكريم كما يراه

فيقول : (القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الاعجاز على إطلاقه ، حين ينفي الامكان بالعجز عن غير الممكن فهو امر لا تبلغ منه الفطرة الانسانية مبلغا . وليس الى ذلك مأتى ولا جهة ، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الالهية يشاركها في اعجاز الصنعة وهيئة الوضع ، وينفرد عنها بأن له مادة من الالفاظ كأنها مفرغة افراغا من ذوب تلك المواد كلها ، وما نظنه الا الصورة الروحية للانسان ، اذا كان الانسان في تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله) ... هنا يستحيل القرآن الى ظاهرة كونية وليس مجرد كتاب . ويحدد اتجاهه في بيان الاعجاز القرآني في نفسه من حيث هو كلام عربي فيقول : (وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي لاننا انما نكتب في هذه الجهة من تاريخ الأدب ، دون جهة التأويل والتفسير) ... أي أن الرافعي يحصر نفسه في مجال تأمل النص القرآني ... من حيث هو إبداع معجز من الوجهة الجمالية ، تاركا جوانب الظاهرة الأخرى لمن يريد أن يتوفر عليها ، ويحدد قيمها المضمونية الهائلة ... ويسترسل الرافعي في شرح الحالة اللغوية التي كان عليها العرب عندما نزل القرآن الكريم ، وهي حالة يصفها بأنها كانت ذروة الفصاحة العربية التي لم تعرف في تاريخهم من قبل حيث بلغ الشعر أوج اكتماله الفني واللغة غاية تنقيحها وتهذيبها وتحددها في نمط من القرشية يرونه مثالا لكمال الفطرة الممكن ان يكون .

وجاء القرآن الكريم . فكان من الاحكام والسمو بحيث تتعرف منه روح كل أمة فرعت الامم واستولت على الأمد التاريخي .... وجبه العرب في معتقداتهم الاجتماعية والدينية والسلوكية ... حتى أخرجهم منها إليه ، وهذا وجه إعجاز قرآني جديد كما يرى الرافعي ... أي أن الاعجاز هنا يتجسد في اخراج القرآن للعرب من تاريخية أرضية الى تاريخية قرآنية .

وحين ينتقل الى قضية (التحدي والمعارضة) يرى أن الطريقة التي سلكها القرآن الى ذلك هي : « ان التحدي كان مقصورا على طلب المعارضة بمثل القرآن ، ثم بعشر سور مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة ، وليس الا النظم والاسلوب ... ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع ، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة ، فقال : (**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين**) البقرة ٢٣و٢٤ فقطع لهم انهم لن يفعلوا وهي كلمة يستحيل ان تكون الا من الله ولا

يقولها عربي في العرب ابدا » .. ويستعرض الرافعي كل من قيل انهم حاولوا معارضة القرآن الكريم وينقض مزاعمهم الواحدة تلو الاخرى ويثبت للقرآن قداسته وتفرده واعجازه الخارق ... ولهذه التخليطات ـ فوق ركاكتها المضمونية الهازلة ـ حرفية تقليدها الهازل ايضا للنمط القرآني العظيم .. وينتقل الرافعي إلى الحديث عن ، (أسلوب القرآن) .. ويمهد لذلك بالحديث عن المستوى البياني المذهل الذي وصل اليه العرب قبل نزول القرآن ... ثم يخوض في جدل رائع حول فرضيات عديدة ، تنتج في النهاية يقينا جازما بأن القرآن معجز بكل المقاييس : (فلما ورد عليهم اسلوب القرآن رأوا الفاظهم بأعيانها متساوقة فيما الفوه من طرق الخطاب والوان المنطق ليس في ذلك اعنات ولا معاياة غير انهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ، ونسق حروفه في كلماتها ، وكلماته في جملها . ونسق هذه الجمل في جملته ، ما اذهلهم عن انفسهم ، من هيبة رائعة ، وروعة مخوفة ، وخوف تقشعر منه الجلود ، حتى احسوا بضعف الفطرة القوية ، وتخلف الملكة المستحكمة ، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه ، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم ، وأنه لا سبيل الى صرفه عن نفس أحد العرب . أو اعتراض مساغه الى هذه النفس ، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم ، واطلع على قلوبهم) ... ومن هنا انقطع العرب عن معارضة القرآن الكريم مع تحديهم الى هذه المعارضة ان استطاعوا والاستطاعة هنا غير مشروطة بشروط خارقة . لان مفرداتها في أيديهم ، فالفاظ القرآن هي الفاظ حديثهم اليومي ، ولكن رصف هذه الألفاظ في هذا النسق التركيبي ، هو الذي اعجزهم بلا حدود ، لأنه جسد لهم من المفردات العادية كمالا لغويا اعجز العادة والاجتهاد جميعا .

ثم يتطرق الرافعي الى بعض ظواهر الاعجاز المتحدي في القرآن الكريم ، كظاهرة (التكرار) الذي يجيء في بعض آيات القرآن فتختلف طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة ، وهذا اروع في الأداء وأسرى في التوصيل ، وأبلغ في العبارة ... وظاهرة (القصد) في خطابه للعرب ، (والبسط) في خطابه لبنى اسرائيل لأن من سنن كلام العرب الاكتفاء باللمحة الدالة اما بنو اسرائيل فلم تكن لهم سليقة العرب ، ولهذا كان لا بد في خطابهم من التكرار والبسط والشرح .... على ان الكلام في عجز العرب عن معارضة السور القصيرة من القرآن ـ يقول الرافعي ـ لا يؤخذ من أن غير العرب المحدثين والمولدين وسائر من يكونون عربا في

اللسان دون الفطرة يستطيعون ما لم يأت لأولئك لأنهم أبعد من العرب في أسباب العجز وأدنى الى التقصير ، وأقرب إلى الهجنة اذا هم تعاطوه .... أما سبيل نظم القرآن في إعجازه فهو أنه معجز للأبد . بوجوه تركيبه ، وخصائص اساليبه ، ومباينته في كل أولئك لكل ما عرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم ، وتنزيل كلامهم ، فكله معجز خارق ... ليس ككلام البشر الذي يتردد بين الصعود والهبوط ويتبع تركيب المزاج الآدمي تهللا وانقباضا .

(من ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم انما ينفرد بأسلوبه لانه ليس وضعا انسانيا البتة ، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه اسلوبا من أساليب العرب ، أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد) ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بد في طريقته ونسقه ومعانيه : (**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**) النساء/٨٢ أما أن يكون وضعا الهيا ... فهو اذن شامل لكل تطورالعصور ، مع استوائه على وجه واحد يستجمع درجات الفهم ، كأن فيه غاية لكل عقل صحيح ، ولكنه في نفسه واسرار تركيبه آخر ما يسمو إليه فهم الطبيعة نفسها .

وحين يتحدث الرافعي عن (نظم القرآن) واعجاز تأليفه ... يرد ذلك الى ثلاث جهات : الحروف وأصواتها .. والكلمات وحروفها .. والجمل وكلماتها ..

١ ـ فأما الحروف وأصواتها :

فيتجسد اعجازها في الموسيقى اللغوية التي تحملها انسجاما ـ.. واطراد نسق .. واتزانا على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ، ونبرة نبرة .. كأنها توقعه توقيعا ، ولا تتلوه تلاوة حتى ان من عارضه (كمسيلمة) حاول أن يوجد لمعارضاته نوعا من هذا الايقاع في تلفيقات زعم بها أنها قرآن كالقرآن .. (وحسبك بهذا اعتبارا في اعجاز النظم الموسيقي في القرآن ، وأنه مما لا يتعلق به أحد ولا ينفق على ذلك الوجه الذي هو فيه الا فيه ، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعض مناسبة طبيعية في الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشي والتكرير) ...

ولا يغيب (أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وأن هذا الانفعال بطبيعته انما هو سبب في تنويع الصوت ، بما يخرجه فيه مدا أو غنة أولينا أوشدة ، وبما يهيىء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها) ...

(وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن الا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه

الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب) ...

وهذه طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة ،؛ وأثرها طبيعي في كل نفس ، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت اعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ...

على أن في القرآن سرا آخر يجعله لا يمل على كثرة الرد وطول التكرار ، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه رأيته غضا طريا وجديدا مونقا ـ كما يقول الرافعي : (هذا على أنه ترسيل واتساق وتطويل ، لا يضبط بحركات وسكنات كأوزان الشعر فتجعل له بطبيعتها صفة من النظم الموسيقى ، ولا يخرج على مقاطع الكلمات التي تجري فيها الألحان وضروب النغم ، مما يسهل تأليفه ، ويكون أمره الى الصوت ... وطريقة تصريفه وتوقيعه ..) ...

٢ ـ وأما الكلمات وحروفها :

فيرى الرافعي ان الكلمة في الحقيقة الوضعية انما هي صوت النفس .. (وصوت النفس أول الأصوات الثلاثة التي لا بد منها في تركيب النسق البليغ ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها ، وبين هذه المعاني وصورها النفسية) ...

والأصوات الثلاثة هي :

١ ـ صوت النفس ، وهو الصوت الموسيقى الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة ، وعلى نضد متساو ، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله الى النفس ، ان وقف عندها هذا المعنى قطع به .

٢ ـ صوت العقل ، وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام ، ومن الوجوه البيانية التي يداور بها المعنى لا يخطىء طريق النفس من أي الجهات انتحى اليها .

٣ ـ صوت الحس ، وهو أبلغهن شأنا ، لا يكون الا من دقة التصور المعنوي والابداع في تلوين الخطاب ، ومجاذبة النفس مرة ومواتعتها مرة ، واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان ، أو يسوق اليها من طرائف المعاني يدعها من موافقته والايثار له كأنما هي التي تريده ، وكأنها هي التي تحاول أن يتصل أثرها بالكلام ، أذ يكون قد استحوذ عليها وانفرد منها بالهوى والاستجابة .

ولو تأملت هذا المعنى فضلا من التأمل وأحسنت في اعتباره على ذلك الوجه لرأيته روح الاعجاز في هذا القرآن الكريم .

ذلك بأن صوت النفس طبيعي في تركيب لغتهم ، وان كان فيها الى التفاوت كمالا ونقصا ، وصوت الفكر لا يعجزهم أن يستبينوه في كثر من كلام بلغائهم أما صوت الحس فقد خلت لغتهم من صريحه ، وانفرد به القرآن ، وقد كانوا يجدونه في أنفسهم منذ افتنوا في اللغة وأساليبها ولكنهم لا يجدون البيان به في السنتهم لأنه من الكمال اللغوي الذي تعاطوه ولم

يعطوه .... الى هنا يكون الرافعي قد بلغ بالقضية أوجها تماما .

واذا كان كل تعبير بشري يتطرق اليه النقص والاضطراب من بعض جوانبه على الأقل ، فان هذا مثال يطرد في كل ما أنت واجده من البلاغة العربية : (فلا ترى شيئا منها يروعك ويملك عليك المذاهب من نفسك بالتئام أجزائه ورشاقة معرضه وحسن تصويره ، الا وقعت منه على ضرب من الاستعانة بالخيال الشعري أو العادة الثابتة أو العاطفة المطمئنة أو نحوها والقرآن لا يستعين بشيء من ذلك في إحكام عبارته والتأتي بها الى النفس وانتظام أسباب التأثير فيها وليس الا أن تقراه حتى تحس من حروفه واصواتها وحركاتها ومواقع كلماته وطريقة نظمها ومداورتها للمعنى بأنه كلام يخرج من نفسك وبأن هذه النفس قد ذهبت مع التلاوة أصواتا ، واستحال كل ما فيك من قوة الفكر والحس اليها ، وجرى فيها مجرى البيان فصرت كأنك على الحقيقة مطوي في لسانك) .

ويسترسل الرافعي ليؤكد عديدا من الأساسيات الصميمة في نظم القرآن الكريم واعجاز تأليفه : فليس في كلمات القرآن اسراف على النفس ولا حشو من زيادة وفضول واعتراض ولا نبو بين اللفظ والمعنى حتى صارت الفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة .. ولو تدبرت الفاظ القرآن في نظمها لرايت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة ، فيهيىء بعضها لبعض ويساند بعضا ولن تجدها الا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي .. وقد وردت في القرآن الكريم كلمات طويلة : (**ليستخلفنهم في الأرض**) النور/٥٥ فهي كلمة من عشرة أحرف ، ولكن عذوبتها تأتي من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها فانها صارت بذلك في النطق كأنها أربع كلمات اذ تنطق على أربعة مقاطع .. وقوله تعالى كذلك : (**فسيكفيكهم الله**) البقرة/١٣٧ فانها من تسعة أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها .. ان الرافعي هنا يبدو ذا حساسية لغوية مرهفة ، كما يبدو على صلة حميمة بخصائص النص القرآني .

وكذلك في الكلمات الأسماء المعربة كابراهيم واسماعيل وطالوت وجالوت ونحوها ، فانها لا تجيء الا أن يتخللها المد فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان ـ وهذا سداد لغوي .

وقد تجيء الكلمة غريبة لغرابة الفعل الذي تجسده : (**تلك اذن قسمة ضيزي**) فقد وردت في سياق قوله تعالى : (**الكم الذكر وله الأنثى . تلك اذا قسمة ضيزي**) النجم/٢١و٢٢ فغرابة التقسيم جاءت بغرابة اللفظ على انها توائم فواصل سورة النجم التي جاءت في سياقها . لأن الفاصلة في السورة يائية

تقتضي هذا الايقاع ...

كما أن هناك ظاهرة تستلفت الرافعي ، وهي مجيء كلمات قرآنية معينة على صيغة الجمع دائما : كالأرجاء والأكواب والألباب ... وكلمات أخرى تجيء على صيغة المفرد دائما : كالأرض .. وكلها تجيء هكذا لقصد تركيبي معجز تفجر من خلاله عديدا من مواطن الروعة والجمال .

٣ ـ واما الجمل وكلماتها :

فيقول الرافعي : (الجملة هي مظهر الكلام ، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي) ويترقى تركيب الكلام مستوى بعد مستوى ـ كما يرى ـ حتى يصل الى المستوى المعجز الذي كانه القرآن : (وانما اطرد ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الاعجاز من الصوت في الحرف ، الى الحرف في الكلمة ، الى الكلمة في الجملة حتى يكون الأمر مقدرا على تركيب الحواس النفسية في الانسان تقديرا يطابق وضعها وقواها وتصرفها ، وذلك ايجاد خلقي لا قبل للناس به ، ولم يتهيأ الا في هذه العربية عن طريق المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تخرق العادة ، وتفوت المألوف وتعجز الطوق) .. وهذا تدرج في الاستدلال من الجزئي الخاص الى الكلي الشمولي .

ومن البين ـ كما يقول الرافعي ـ أن أهم أسباب الارتقاء كائن في الغلبة والتميز والانفراد حيث وجبت ، وهذا هو المستوى الذي أحرزه القرآن الكريم وحده ، فأحدث به هذا الانقلاب التاريخي الفريد ، حضارة تاريخية وحضارة روحية معا .

كذلك يتميز النظم القرآني ـ كما يرى الرافعي ـ بما يمكن تسميته (روح التركيب) لأن اللغة التي نجدها في القرآن ليست لغة مغايرة للغة العادية ـ اذا نظرنا الى مفرداتها ـ ولكنها تصير شيئا معجزا في القرآن من الوجهة التركيبية ويبقى غيره من التركيب ركاكة بلا اعجاز .. ان البناء هنا هو جوهر التشكيل الجمالي في القرآن .

ويلاحظ الرافعي أن أية بلاغة تتعاطى الكلام في باب الشرع ، وتقرير النظر وتبيين الأحكام ونصب الأدلة ، واقامة الأصول ، والاحتجاج لها ، والرد على خلافها .. تجيء لامحالة بكلام نازل عن طبقة كلامها في غير هذه الأبواب .. أما في القرآن الكريم فالأمر غير ذلك على الاطلاق فهو يردد الكلام بين كل هذه الأغراض والمعاني ولا ينزل عن طبقة الاعجاز في كل أولئك .. وهذا سر آخر من أسرار اعجازه واكتنازه .. والحق أن الرافعي هنا قبض على قضية فنية صميمة وهي الاقتدار على تذويب الفكر في وهج الابداع دون تقريرية مباشرة وأيضا دون تخييل بلا مضمون .

وعن (غرابة أوضاعه التركيبية) يتحدث الرافعي حديثا حديا اذا شئنا أن نقول فهو يضع حدا فاصلا بين الابداع البشري والابداع القرآني من خلال وعيه العميق بآدمية ابداع والهية ابداع آخر ، وكل ما في القرآن الكريم من قيم تركيبية تؤكد هذا

الفارق الحدي وتجعله مستوى من الابداع لا يقارن بغيره من مستويات الابداع في كل الأجناس وكل العصور .. انه هنا يمتلك فرادة معجزة .

وتبدو غرابة أوضاعه التركيبية في ائتلاف الألفاظ والنظام والسرد وأن التراكيب فيه مباينة للتراكيب المألوفة لدى بلغاء العرب وأننا في القرآن وحده نستطيع العثور على (معجم تركيبي) يشكل أصل فنون البلاغة : (من ههنا كانت دهشتهم له ، وكان عجبهم منه ، اذ رأوه يجري مجرى الفن مما لا يعرفون له فنا ، ووجدوه في ذلك ببلاغة البلغاء جميعا ، واستيقنوه فوق ما تسع الفطرة ، ثم صار من بعدهم يأخذ منه أصول هذا العلم عصرا بعد عصر ، وقبيلا بعد قبيل ، حتى استقرت البلاغة على قواعدها وهو مع ذلك بحيث كان ، لا الفطرة استوفت ما فيه ، ولا الصناعة .. ولا يزال بعد كأنه في نمط بلاغته سر محجب)

هذه أبرز ملامح الدراسة الرائدة في فكرنا العربي المعاصر التي حدد بها الرافعي رؤيته المسلمة لقضية الاعجاز القرآني بدأها بدراسة الاشعاع الحضاري الذي أحدثه القرآن الكريم في المحيط العربي والانساني وقد سمينا هذا الفعل التاريخي (بالاعجاز المجالي) أي بما أحدثه القرآن في المجال الحضاري والانساني من تحول شامل .. ثم عطف بالدراسة صوب تأمل الخصائص الذاتية في النص القرآني فدرس تاريخية القول بالاعجاز أولا ، ثم توفر على دراسة ما في القرآن من خصائص أسلوبية في نظمه ، وتأليفه ، وأوضاعه التركيبية وطرائقه البلاغية .. مترقيا في ذلك من الحديث عن المفردات الصغيرة للقضية الكلية ، ومنتهيا الى شمول الحديث عن القضية الكلية ذاتها ، بلا مفارقة فاقعة بين حديثه هنا وحديثه هناك .. فهو حين يتحدث ـ مثلا ـ عن نظم القرآن واعجاز تأليفه ، يتحدث عن ذلك من خلال تأمل المفردات المكونة لهذا الاطار الكلي، فيتوقف عند خصائص (الحروف وأصواتها) و(الكلمات وحروفها) و(الجمل وكلماتها) .. وهذه بدورها هي جوهر (النظم والتأليف) ..

على أن الرافعي في دراسته يلون المضوعية بالذاتية كثيرا ، ربما لأن طبيعة القضية ذاتها تحتشد بعناصر الحس العقيدي، الذي يجعل الدارس يتعامل مع الأشياء بغير الحيادية المنشودة في الدراسة العلمية، وهذه وضعية لا حيلة للرافعي ولا لغير الرافعي فيها .

ومع ذلك فقد لا نغامر اذا قلنا ان المنهجية الصارمة كانت سمة من سمات هذه الدراسة العميقة. بدءا من التدرج الطبيعي في تناول الظاهرة، وانتهاء الى تجسيد اطار عام يقف الاعجاز القرآني فيه كائنا متجاوب الانحاء والملامح .. مع بعض التجوز في الأسلوب الرافعي وأيضا في الحركة الفكرية ، فكل ريادة محكومة في النهاية بمثل هذه التجوزات !!!